بناء المفاهيم وربطها بالواقع العربي عند محمد عزيز لحبابي

Building concepts expressing the Arab reality according to Muhammad Aziz Al-Hababi

Construire des concepts exprimant la réalité arabe selon Muhammad Aziz Al-Habab

زروخي الشريف[1] *

تاريخ الإرسال: 2019/09/26 تاريخ القبول: 2021/12/02 تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص:

نسعى عبر هذا المقال الوقوف على إشكالية الإبداع المفهومي في الفكر العربي المعاصر ووظيفته الثقافية والاجتماعية، وذلك من خلال الاشتغال على أطروحة المفكر عبد العزيز الحبابي، لأنَّ الحبابي حاول إعادة النظر في بنية الخطابات التي تنتج في فضائنا التداولي العربي المعاصر فلاحظ أنها توظف مفاهيم غاية في الغموض مما ولد سوء الفهم لدى المتلقي، وصعوبة في التواصل مع الواقع ومكوناته، كما يهدف إلى تحديد أهم العراقيل الابستيمولوجية التي تحول دون ابداع جهاز مفاهيمي يستجيب للتحديات الراهنة، والتطرق للآليات المنهجية التي يقترحها لحبابي والنظر في بنيتها لمعرفة مدى فاعليتها .

الكلمات المفتاحية : محمد عبد العزيز الحبابي؛ الابداع ؛ الفكر؛ الفكر العربي المعاصر؛ الابستيمولوجيا؛ المفهوم ؛ الثقافة

Abstract :

We seek behind this article to identify the problem of conceptual creativity in contemporary Arab thought and its cultural function, working on the thesis of thinker Abdul Aziz Al-Habbabi, and we try to reconsider the structure of discourses that employ very vague, which generated misunderstandings for the recipient, and communication difficulties. With reality and its components, we also aim to identify the most important epistemological obstacles that prevent the creation of a conceptual network that responds to current challenges.

Keywords : Muhammad Aziz Lahbabi; creativity; Thought; contemporary Arab thought; Epistemology; Concept; the culture

Résumé : (Ne pas dépasser 150 mots)

Nous cherchons derrière cet article à identifier le problème de la créativité conceptuelle dans la pensée arabe contemporaine et sa fonction culturelle, en travaillant sur la thèse du penseur Abdul Aziz Al-Habbabi, et nous essayons de reconsidérer la structure des discours qui emploient des concepts très vagues, qui ont généré des malentendus chez le destinataire, et des difficultés de communication. Avec la réalité et ses composantes, nous visons également à identifier les obstacles épistémologiques les plus importants qui empêchent la création d'un réseau conceptuel qui répond aux défis actuels.

*المؤلف المراسل

[1] زروخي الشريف, جامعة محمد لمين دباغين سطيف2, ALGÉRIE, cherifz@outlook.fr

Mots clés : Muhammad Aziz Lahbabi; la créativité; Pensée; pensée arabe contemporaine; Épistémologie; Concept; la culture.

مقدمة

من بين القضايا التي صارت هما فلسفيا في فكرنا العربي المعاصر قضية الإبداع المفهومي والتجديد في المصطلح، لأنَّنا صرنا اليوم بحاجة إلى جهاز مفهومي نابع من فضائنا التداولي العربي المأزوم على كل المستويات والحقول، جهاز يمكن أن يحل محل المفاهيم الكلاسيكية التي تنتمي إلى سياقات قديمة، وهي مفاهيم صارت خاوية من المعنى بلغة فيغجنشتين(Ludwig Josef Johann Wittgenstein) (1889م-1951م) لا تعبر عن الواقع ولا تشير إليه. وقد انتبه لهذا الغياب بعض مفكرينا في العالم العربي المعاصر أمثال: الحبابي والجابري وحسن حنفي وناصيف نصار ومحمد أركون وطه عبد الرحمان وفتحي التريكي ومحمد المصباحي وغيرهم كثير، فكان أن حملوا على عاتقهم مسؤولية انتاج مفاهيم تنتمي إلى بيئتنا العربية وفي نفس الوقت تتميز بالقدرة على اعتناق الكوني.

وشعور المفكر بالمسؤولية اتجاه مجتمعه واتجاه الإنسانية هو الذي يدفعه للعمل بجدية وصرامة للتحول بالفلسفة إلى أفق كوني على اعتبار أنَّ التفلسف حق لكل شعوب العالم بكونه يعبر عن حقيقة الاختلاف والتنوع في الرؤية للكون وللإنسان، كما أنَّه يتيح الفرصة للتواصل مع المغاير مهما كان مختلفا في رؤيته واعتقاداته، لهذا حاول المفكر عبد العزيز الحبابي (Mohamed Aziz Lahbabi) (1922م-1993م) وهو -نموذج دراستنا في هذا المقال- العمل على تحديد المصطلح وبناء مفاهيم تعالقية مع الواقع العربي ومشكلاته الراهنة انطلاقا من اللغة العربية وايمانا منه بقدرتها على استيعاب المفهوم الفلسفي وتطوره في التاريخ، وكان يهدف إلى تقليص الهوة بين الأطروحات الفكرية والواقع المأزوم. من هذا المنطلق فالإشكال الأساسي في هذا المقال يتعلق بإمكانية التفكير مفهوميا في ثقافتنا العربية المعاصرة، فهل تمكن الحبابي من وضع أسس ابستيمولوجية لبناء مفاهيم تنتمي إلى الواقع العربي وتعبر عنه؟ وتندرج تحت هذه الإشكالية تساؤلات جزئية حسب مقتضيات المضمون وهي كالتالي:

- ماهي التحديات الإبستيمولوجية التي تقف عائقا أمام المفكر العربي لإبداع جهاز مفاهيمي يستجيب لواقعه؟
- كيف يمكن للمفكر في السياقات العربية المعاصرة أن يتحرر من سلطة الآخر على مستوى المفهوم؟

وللتعامل مع هذه الإشكالات سنعتمد على المنهج التحليلي لأنه الأنسب في التعامل مع أطروحة الحبابي واستنطاقها لما يستجيب لأهدافنا المعلن عنها(التفكير مفهوميا في الواقع المركب).

1- في القول الفلسفي للحبابي:

اهتم الحبابي بقضايا متنوعة منها ما يتعلق بالجانب الفكري الفلسفي ومنها ما يتعلق بحقل الأدب وتفرعاته، إلا أنَّ الخطاب الفلسفي كان الأهم لأنَّه احتل المركز في مشروعه النهضوي(ميشال فوكو، 1986) والتحديثي في إطار إعادة

تشكيل فضاء إنساني قائم على مبدأ التعايش المشترك، ويمكن اعتبار القول الفلسفي للحبابي بمثابة محاولة لاستئناف القول الفلسفي العربي في أفق كوني، وقد أشار تلميذه عبد اللطيف كمال في كتاب جماعي"محمد عزيز الحبابي الشخصانية والغدية"، من اصدارات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، في 2015م، إلى أنَّ الحبابي كان يهدف إلى محاولة:"إعادة تأسيس قواعد جديدة للتضامن الإنساني، بمعايير اجتماعية وأخلاقية، ومن منظور تحرري يركب النظر بالاعتماد على معطيات نفسية ووجودية".(محمد عزيز الحبابي ، 2015م.ص10)

ولم يمنع التفكير في أفق كوني الحبابي من الاستناد على الذات التراثية وبعض مقولاتها. كما لم يمنعه من التفكر في واقع المجتمعات العربية والوقوف على أهم الإشكالات، لأنه آمن بضرورة انتماء المفكر إلى مجتمعه، معتبرا المفكر بمثابة ضمير المجتمع الحي وهو القادر على انتشاله من التخلف التاريخي، يقول:"الفيلسوف الحق هو الذي يتفاعل مع ظروف حياته"،(الحبابي، 1991م، ص168-171)، وفعلا لقد ادرك الحبابي أهمية رسالة المثقف في المجتمع، والدور التنويري الذي يمكن أن يؤديه، فهو قادر على تمكين المجتمع من التحرر وتجاوز أزماته عبر المساهمة في بناء الوعي المسؤول، وقد عبر الربيع ميمون عن الأفق الذي كان ينتمي إليه الحبابي في إحدى مقالاته بقوله:"صار، فيلسوفا للغرب وللشرق، يطلبه الفكر الغربي لنفسه لأنه فرض نفسه عليه كعلم من أعلامه، ويطلبه الفكر الإسلامي لأنَّه اعرب عن روحه وسموها وارتقى به إلى عليائه حيث يهيمن على الفكر مهما كانت أرضه، ومهما كان زمانه، إيمانا منه بأنَّ الفلسفة إنسانية وبأنها لا تكون بالحقيقة إلا كذلك".(ربيع ميمون، 1994م، ص65-66)

وكان يحرص الحبابي لانجاز هذا المشروع على ضبط المفاهيم وتحديد مدلولاتها في كل قضية يعالجها، بغية ايجاد مكان محايد للفلسفة يستطيع فيه العقل أن ينظر للمسائل بعيدا عن تأثير الأيدولوجيات المختلفة، كما كان همه تمكين المفكر العربي من التعبير عن مشكلاته الوجودية تعبيرا فلسفيا، لأنَّ المفكر المسؤول والجاد هو الذي يتفاعل مع مشكلاته الوجودية عبر السؤال الحقيقي دون مصادرة الواقع وشروطه السياسية والاقتصادية والثقافية، لهذا ينبغي أن يكون المفكر منهما بالأسئلة الحارقة التي تؤثث الأزمات، وإذا لم ينهم المفكر بالأسئلة أو يطرح الأسئلة الحقيقية التي ينبغي عليه أن يواجهها طرحا وتحليلا وتفكيكا وبناءا فلا فرق في هذه الحالة بينه وبين باقي الناس العاديين، بل يصبح المفكر على هذه الشاكلة جزء من الأزمة من خلال تزييف الواقع وأدلجته، مما يعني أنَّ دور المفكر لا يقتصر على طرح الأسئلة وإنما يتجاوزها إلى ضرورة تقديم إجابات عملية تمكن الناس من العيش في فضاء مؤسساتي مؤطر بفكر عقلاني، والعقلنة هي تلك التي تمر عبر إبداع مفاهيم واضحة تنتمي إلى رهانات الواقع اليومي.

ومحاولة ضبط المصطلحات وتحديدها بوضوح ما هي إلاَّ محاولة لإعادة بناء العلاقة بين الفكر والواقع الذي ينتمي إليه، ومن ثمة يمكن التعبير فلسفيا عن مشكلات أنطولوجية معيشة، مما يجعل المفكر الحقيقي مطالب بأن يضبط

مصطلحاته ويحدد دلالتها المفهومية بدقة في عملية تواصله، على اعتبار أنَّ المفهوم هو معاناة وممارسة أنطولوجية وسيكولوجية وسوسيولوجية وتاريخية في نظر الحبابي، لهذا المفهوم له بعد عملي (براكسس) يقتضي منهجا دقيقا واضحا، لأنَّ ضبابية المصطلح وغموض الدلالة المفهومية يؤدي إلى سوء الفهم لدى المتلقي وحتى لدى المفكرين أنفسهم، وينتج عن سوء الفهم ضعف فاعلية الخطاب على التغيير والتجديد، وقد يؤدي إلى حالة النفور من الخطاب الفلسفي كما هو حاصل اليوم في فضائنا التداولي، يقول الحبابي:"إنَّ التواصل مجرد تعبير عن فكر يتجسد نظريا أو فعليا، كما أنه معيار لكل فعل مسؤول، به يميز الخطأ من الصواب، والقبيح من الحسن، فإذا لم يكن لنا لسان دقيق مبين، افتقدنا الفكر الصحيح المستقيم".(الحبابي، 1990، ص07)

ويتأسف الحبابي على وضعنا الراهن، لأنه محكوم بمفاهيم غامضة تعكس ذلك القصور على مستوى أذهان النخبة، فهي نخبة تعيش حالة من القطيعة مع راهنها حتى تحولت إلى أزمة يمكن وصفها بأنها نخبة مستقيلة أو مقالة تعيش على هامش آلام وأحلام مجتمعاتنا، يقول الحبابي:"إنَّ العرب يحاولون مواجهة المصير بتفكير مبهم يقوم على مفاهيم غير دقيقة، وعلى منهج غير واضح، فلن يصلوا إلى فهم مصيرهم الفهم الصحيح المناضل مادامت تعابيرهم تقريبية لا تفي بإجلاء محتوى المعاني لافتقاد الألفاظ الدقة والضبط".(الحبابي، 1990،ص05)

ويسمي الحبابي عملية ضبط المفاهيم بالنقد الذاتي للذات المفكرة التي تعيش على فتات الآخر دون الانتباه إلى أنَّ المفهوم كائن تاريخي وله انتماء ثقافي واجتماعي ولغوي، وقد لاحظ أنَّ عملية ابداع المفاهيم وضبط المصطلحات في عالمنا العربي غير قادرة على ملاحقة المنجز العلمي والفلسفي المتسارع في العالم الغربي، هذا الوضع يخلق تفاوتا ثقافيا بيننا وبين الغرب على مستوى المصطلح، ولا ينكر الحبابي وجود بعض المحاولات من قبل مفكرينا لكنها في رأيه لا تستجيب للتحديات المطلوبة، لأنَّ تلك المحاولات غير ممنهجة في اطار مؤسساتي وتبقى مجرد اجتهادات فردية تفتقد للنسقية، وأدى في الكثير من الأحيان غياب المنهجية العلمية في ما يتعلق بالضبط المصطلحي إلى فوضى المصطلح فتولد عن ذلك غموض في الرؤية وفي الأفكار لحد التناقض.(الحبابي، 1990)

ولتجاوز هذا الوضع ينبغي على المفكرين والمهتمين بالشأن الفلسفي العمل على تجاوز ظاهرة الغموض اللفظي بكونها ظاهرة كلاسيكية لا تخرج عن دائرة الاعجاب باللغة في حد ذاتها على طريقة شعراء العرب قديما، والتوجه إلى بناء الوعي بمختلف وظائف اللغة الحيوية من تواصل وتبليغ وكشف وحجاج وبرهان، يقول الحبابي:"نعتبر التأمل في هذه الظاهرة سبيلا إلى نقلها من مستوى فوضى عشق اللغة لذاتها، إلى صعيد الوعي بوظائفها الطبيعية الحياتية، فبدون ذلك لن يتأتى عبر هذه الرحلة الشائكة، الاسهام في اجلاء الغموض".(الحبابي، 1990، ص16)، لكن من ناحية إجرائية كيف يمكننا تجاوز ظاهرة الغموض التي تسكن الخطاب الفلسفي العربي اليوم؟

2- مهمات المفكر العربي اليوم والتحديات الابستيمولوجية

إنَّ المفكر العربي مطالب اليوم بأنّ يفكر في واقعه عبر المفهمة، وهذا هو الأمر الذي اهتم به الحبابي، وإذا تتبعنا الأعمال التي خلفها لنجدها تدور حول إشكال مركزي وهو الابداع المفهومي انطلاقا من الواقع المتخلف، فنجده يثير إشكالية علاقة المفهوم بالواقع العربي ومدى انتمائه، وإشكالية حضور المفاهيم الغربية في المشاريع النهضوية وعلاقتها بالواقع وأشكال تأثيرها في الواقع من ناحية ايجابية أو سلبية، كما أثار إشكالية الحمولة الأيدولوجية للمفاهيم والمصطلحات التي يتلقاها فكرنا العربي في حالة غياب الوعي بهذا الجانب. وينبغي أن لا يفهم من هذا بأنَّ الحبابي يدعو إلى القطيعة من الغرب ومنتجاته، وإنما يدعو إلى ضرورة أن يكون التواصل مع الآخر (الغرب) مبني على الوعي، أي وعي الذات لمكانتها في التاريخ، ووعي الآخر وما ينتجه من مفاهيم، يقول:"فمن لا يأخذ ويقتبس ويستعير، لا يمكن أن يجدد ويتجاوز ما هو موجود، فالخلق العفوي أو الابداع من لا شيء غير ممكن".(الحبابي، 1990، ص240)

وكان من بين أهداف الحبابي تطهير المصطلحات الشائعة في ثقافتنا العربية من ظاهرة القصور والعجز عن استيعاب الواقع ثم التأسيس الواعي لمفاهيم لها انتماء ثقافي، وكل جهده يندرج في إطار محاولة السيطرة على إشكالية الابداع المفهومي والوقوف على العوائق الابستيمولوجية التي تحول دون ظاهرة الابداع وتسهم في تبعية فكرنا للآخر، لهذاّ نتساءل عن الكيفية التي تتم بها عملية بناء المفاهيم وتأسيسها في فكرنا العربي المعاصر؟

إنَّ الاجابة على هذا الاشكالّ يتطلب منا استدعاء بعض النماذج التي تمكننا من الاحاطة بالموضوع على الرغم من أنَّ أغلب مفكرينا قد انهموا بهذه القضايا، ومن بين الذين اهتموا بهذه القضية وانتبهوا إلى خطورتها الابستيمولوجية كما قلنا الحبابي الذي حاول تأسيس مفاهيم وإبداعها على الطريقة الدولوزية Gilles) (Deleuze, 1991 بعيدا عن النقل والمحاكاة، فكان يؤكد في كل أعماله على ضرورة تجديد المفاهيم وإعادة بنائها أو أقلمتها لكي تنسجم وواقعنا العربي، ومن المفاهيم التي أعاد بنائها نذكر مفهوم: الشخصانية، الشخص، الفرد، الحرية، الدولة، الأمة، الديمقراطية، الوعي، الأنا، المسؤولية، الحداثة، الشخصانية الإسلامية، الإنسان، الكائن، الواقع، والأصالة والمعاصرة، وغيرها من المفاهيم التي شكلت أطروحته الحداثية، ورؤيته الفلسفية.

إنَّ بناء المفاهيم من الإشكاليات التي واجهت كل الشعوب التي ارادت التقدم في التاريخ أو تجاوز ذاتها، مما يعني أنه يوجد تساوق بين الحضارة والإبداع المفهومي، فعملية الابداع تقتضي ضبط المفاهيم بدقة وتحديد دلالاتها بوضوح على الطريقة الديكارتيةRené Descartes (1596-1650م)،(نصر عارف ،1994) لكننا عندما نقترب من المصطلحات التي تشكل الجهاز المفاهيمي للمشاريع الفكرية في عالمنا العربي نجدها غير واضحة ويشوبها الغموض

مما يتركها عرضة لتأويلات متناقضة، فيعسر الفهم على المتلقي أو القارئ، كما يعسر ردها إلى الواقع، فكانت في الغالب عرضة للأدلجة حسب تعبير الحبابي، ولتجاوز ظاهرة القطيعة بين الفكر والواقع ينبغي حسبه:"أن نجعل من واقع شعوبنا المرجع الأساسي لأعمالنا، والمنطلق لإعادة بناء نسق أفكارنا، مع الاستفادة من تجارب الغير".(الحبابي، 1990، ص26)

وربط الفكر بالواقع الذي ينتمي إليه يمر عبر اللغة، لهذا نبهنا المفكر الحبابي إلى ضرورة الانتباه إلى علاقة اللغة بالفكر في عملية الإبداع، وهو الأمر الذي أكده زكي نجيب محمودZaki Naguib Mahmoud (1905–1993م) فقد دعى إلى ضرورة ضبط الالفاظ بدقة لكي تسهل عملية التفكير والتعبير على حد سواء، لأنَّ جل الدراسات تشير إلى أنَّ غموض الفكر سببه فوضى اللغة، وقد أكد هنري برغسونHenri Bergson (1859م–1941م) على هذه الظاهرة عندما اعتبر أنَّ سوء اختيار الألفاظ يؤدي بنا إلى طرح إشكالات وهمية مزيفة وغير حقيقية، والمعروف عن برغسون توجيهه الفكر صوب الأسئلة الحقيقية بدل الأسئلة المزيفة التي تلامس الواقع النفسي والاجتماعي والسياسي،(Bergson, 1970) وتبقى اللغة دالة على الفكر كما أكدت جوليا كريستيفيا (Julia Kristeva.1941)

ولا يستطيع الفكر أن يفصح عن ذاته من دون لغة تعبر عنه، لأنَّ اللغة تنقل الفكر من القوة إلى الفعل، لأنه يوجد تلازم شرطي بين اللغة والفكر، ولما يلتقي الفكر باللغة تحدث ديناميكية فيتطور الفكر واللغة تبعا لذلك. وقد جعلت اللسانية الفرنسية جوليا كريستيفيا من اللغة آلية عبرها يوجد الفكر ويفصح عن ماهيته وحقيقته بكون:"اللغة هي جسم الفكر"،(أحمد محمد المعتوق، 1996، ص34)، ولا شك أنَّ اللغة العربية اعتنت بالمصطلح الفلسفي وهذا عندما احتكت بالفلسفة اليونانية. ويمكن للغة العربية في رأينا أن تستوعب المصطلح العلمي، لأنها استطاعت استيعاب المصطلح الفلسفي سابقا مع الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، أين تمكنت اللغة العربية من التعبير عن المعاني الجديدة التي تشير إلى حقائق وجودية وذاتية، لكن أعيد طرح إشكالية قدرة اللغة العربية على ترجمة المصطلحات الفلسفية واستيعاب دلالتها حتى صارت هذه الإشكالية من الإشكالات المقلقة بالنسبة للمهتم بالشأن الفلسفي في العالم العربي اليوم.

والأمر لا يتعلق بنقل ألفاظ من لغة أجنبية إلى ألفاظ عربية لأنَّ اللغة:" ليست توليدات صوتية كل واحدة تنطبق على أمر ما، فيعود الاختلاف بين اللغات إلى اختلاف في التسميات، ويكون تعلم لغة ثانية بحفظ منظومة من الكلمات توازي في جميع مفرداتها المنظومة المعروفة الأولى"،(André Martinet.. 1960.p10)، أضف إلى ذلك أنَّ المصطلح الفلسفي ظاهرة معقدة فهو مشكلة لغوية وفلسفية لأنه كائن تاريخي له علائق مع الظواهر الثقافية المختلفة، مما يجعل فعل الأقلمة فعلا صعبا لأنه يقتضي الاحاطة بالظروف التاريخية والثقافية والفكرية التي ظهر فيها المصطلح لمعرفة مضمونه

الفكري والأيدولوجي، من هنا نجد انفسنا أما سؤال إمكانية ملاحقة اللغة العربية للواقع الفكري والعلمي في عالمنا المعاصر؟ وهل تستطيع اللغة العربية أن تعبر عن المفاهيم الابداعية؟

لقد ربط حسن حنفي بين المشاريع الفكرية التي اخفقت وبين اللغة العربية التي لم تتمكن من مسايرة روح العصر الفكرية، لأنها لم تتمكن في نظره من استيعاب المفاهيم الجديدة،(حسن حنفي، 1981) فاللغة العربية تظل تعاني من نقص كبير في المصطلح وفي اساليب التعبير مما يجعل منها لغة بعيدة عن الفكر الفلسفي الذي يعرف بفكر المفهوم، ولتجاوز الوضع ألح الحبابي على ضرورة تمثل المفكر للذهن الجمعي ومدى تأثير المفاهيم في ذهن المتلقي، يقول:"يجب علينا جميعا، عندما نكتب، أن نمتحن كيف نكتب، وما نكتب، وأن نتصور لمن نكتب، فالبلاغة ليست أن تخاطب الناس على قدر ما يفهمون، بل البلاغة هي أن تبين عن قصدك بالصيغ التي تجعل القارئ أو السامع يفهم".(الحبابي، 1990م ، ص07).لأنَّ ممارسة الخطاب بمعناه البلاغي لا يعدو مجرد تسطيح للفكر وتحايل على المعنى الحقيقي الذي يحتاج إلى دقة في الألفاظ وصرامة في المنهج، كما أنَّ التركيز على البعد البلاغي في الخطاب لا يسهم في بناء الوعي وإعادة تشكيله ورفعه للمستوى المطلوب عبر الحوار التواصلي والتفاعلي، بقدر ما يسهم في خفض درجة الوعي وتزييفه عبر تلميع الخطاب بزخارف السجع والاستعارة والقافية، وقد اعتبر الحبابي ظاهرة الغموض في التعبير مظهر من مظاهر التخلف الفكري والاجتماعي والعجز عن التواصل.(الحبابي، 1990م).

ورغم هذه الصعوبات الابستيمولوجية إلا أنَّ مفكرينا مصرون على نقل الفلسفة من اللغات الاجنبية إلى اللغة العربية مع ادراكهم لصعوبة المهمة على مستوى مضمون المفاهيم ودلالاتها، يقول المصباحي:" اللغة العربية التي استطاعت عن طريق احتكاكها باللغة الفلسفية اليونانية في السابق أن تختزل تجربة واسعة وعميقة للمفاهيم النظرية والأسئلة الجريئة حول الوجود والأخلاق والسياسة مكنها أن تخلق لنفسها لغة فلسفية غنية، لم تتأت لكثير من اللغات، وهذا الرصيد الذي هو الملكة الفلسفية الراسخة أهَّل اللغة الفلسفية العربية في الأزمنة الحديثة أن تقوم بمغامرة جديدة قيد الانجاز مع اللغات الفلسفية الأوروبية الحديثة لتحديد جهازها المفاهيمي وأدواتها المنهجية والرؤيوية المنهجية أو النظرية".(محمد المصباحي، 2010، ص7).

وهكذا نلاحظ درجة الارتباط بين اللغة والفكر بكونه كما يقول إبراهيم مذكور هو:"جملة النشاط الذهني من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة وبوجه خاص ما يتم به التفكير من أفعال ذهنية كالتحليل والتركيب والتنسيق"،(ابراهيم مذكور، 1983، ص137)، وإذا كان الفكر نشاط عقلي فهو ظاهرة جد معقدة بحيث تتشابك فيه جملة من النشاطات والقدرات العقلية العليا من تخيل وإدراك وتذكر وتحليل وتركيب وتأويل، وهو يعتمد على المعاني كأدوات ويقابلها في اللغة الألفاظ. ويعني الفكر حسب الموسوعة الفلسفية:«القدرة على التجريد ،التحليل، التركيب، أو تصور الغايات

وتحديدها ووضع العلاقات بين الوقائع والأحداث والقضايا، والبحث عن الحلول المناسبة للمشاكل انطلاقا من فرضيات»(م. روزنتال ، ب. يودين ،2012، ص377)، كما قد يفيد –الفكر– تعقل الأمور، وتحصيل المعارف حولها، فالفكر محاولة لعقلنة الأمور عبر التأمل فيها، فهو حركة النفس في المعقولات فإما ينتقل من الغايات إلى المبادئ أو من المبادئ إلى الغايات. والفكر عملية شاملة لكل المعارف الإنسانية وهو من انواع النشاط الفلسفي.

ولكي ننتج خطابا سليما يتمتع بالقدرة على الفاعلية ينبغي أن تكون الفاظنا دقيقةً لهذا يصر الحبابي دائما على العلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة، في قوله:"ينبغيّ تجديد الفكر على اللغة المتجددة، إلا أنَّ أي لغة مهما استوفت شروط الحركة والجدة، وكل فكر مهما كانً توقه إلى الإبداع كبيرا هما معا في حاجة إلى خلفيات ثقافية، وتجارب وتقاليد علمية، وتمارين وجهود فكرية، فبلا ذلك تنحل الرابطة التي تجمعهما، وتتجمد إمكاناتهما متفردين ومتعاونين".(الحبابي، 1990، ص 16)، الملاحظ في هذا النص أن الانطلاقة الحقيقية التي أرادها الحبابي تبدأ من تجاوز ظاهرة الغموض الذي يسكن المفاهيم المبهمة، وقد تعرض لمصطلح الابهام متسائلا ما لمقصود بالمبهم؟ وكيف نتجاوزه على مستوى الكتابة والتفكير والخطاب؟

يبدأ الحبابي بحث الإشكالية من البحث في ماهية الغموض متسائلا ما الإبهام؟ ويجيب:"الإبهام في الكلام هو ما يجعله غير يقيني، واللفظ المبهم ماله أكثر من معنى، فيفرض على سامعه أو قارئه تأويلات مختلفة. إذن، اللفظ المبهم لفظ ينقصه الوضوح لأنَّ طبيعته غير محددة. فالإبهام ملازم للغموض ولتضارب الاحتمالات الدلالية، يحصل عنه التباس، فسوء فهم، ثم سوء تفاهم"،(الحبابي، 1990، ص 16)، وبعد ذلك بحث في جذر اللفظ ليصل إلى القول إنَّ:" المفهوم المبهم مفهوم بلا رابطة بالمعرفة، وهو نفسه مجهول...إن المفاهيم المبهمة مفاهيم تغلق الأبواب أمام التفكير، ولا تفتحها إلا للفوضى(تناقض التأويل)".(الحبابي، 1990، ص 18)

يشير لحبابي إلى ظاهرة مهمة وهي أنَّ المفهوم له انتماء ثقافي وتاريخي واجتماعي، فكلما كان المفكر قادرا على تأصيل جهازه المفهومي كلما كان قادرا على الابداع وعلى التفاعل مع واقعه وشروطه، والمفهوم له بنية علائقية ينبغي على المفكر الانتباه إليها، وهنا يلتقي ورؤية جيل دولوز للمفهوم عندما يقول:"لا وجود لمفهوم بسيط، كل مفهوم يملك مكونات. ويكون محدد بها. للمفهوم إذا رقم. إنه تعددية، حتى وإن لم تكن كل تعددية مفهومية. لا وجود لمفهوم أحادي المكون: وحتى المفهوم الأول الذي "تبدأ" به فلسفة ما فإنه يتوفر على مكونات كثيرة"(جيل دولوز، فليكس غتاري، 1997، ص39.)، ومن هذا المنطلق فالمجتمعات التي انجزت ثورات علمية وفكرية هي مجتمعات كان نصيبها من الابداع المفهومي أوفر حضا، كما هو حال المجتمعات الغربية فهي مجتمعات ساهمت في احداث ثورات علمية واقتصادية وفكرية فكانت أن تميزت بقدرتها على ابداع جهازها المفهومي، لهذا كلما ارتكز المفكر على نصوص أصيلة

كلما تمكن من إنتاج خطاب أكثر فاعلية يقول:"فالدقة والوضوح، في اللغة وفي التفكير، يخولان من إحصاء الإمكانات وتمحيصها، فبقدر ما تتقوى الخلفيات الثقافية والفكرية، بقدر ما تنمو وتزدهر الإمكانات المختلفة لدى الفرد ولدى المجتمع".(الحبابي المصدر السابق،1990، ص 16)

آمن الحبابي بأنَّ الانطلاقة الحضارية للعالم العربي ودخوله مجرى التاريخ الكوني مرة ثانية مرهونة بذلك التكامل بين الفكر واللغة وبين الفكر والواقع وبين الواقع والإمكانات، فهي دعوة لفهم علمي مؤسس على معطيات ابستيمولوجية للواقع عبر المفهوم المبدع الذي يبدأ بتجديد مفاهيمنا وألفاظنا وضبطها وتحديد دلالاتها، لأنَّ الضبط الاصطلاحي أولى مراحل البحث العلمي أو سبيل الولوج لأي علم أو خطاب علمي أو فلسفي.

ويمكننا أن نقول أنَّ مفكرينا قد اهتموا بالجانب المصطلحي والمفهومي مدركين أهمية ذلك في عملية النهضة الحقيقة، وكان للحبابي مقاصد انطلق منها في عملية نحت المفاهيم وضبط المصطلحات بغية المساهمة في الحركة الاصلاحيةً، فبدأ أولا بعملية تفعيل بعض المفاهيم الإسلامية مدركا أنَّ المجتمعات العربية لم تبلغ بعد الوعي الكاف لتنجز حداثتها، لأنَّ النهضة تحدث على مستوى الأذهان أولا ثم تتحقق في الواقع السياسي والاقتصادي والمؤسساتي فيما بعد، وفعلا بدأ بعملية إعادة بناء وتحديد مفهوم التراث والتاريخ والحاضر والمستقبل تحديدا ابستيمولوجيا لا إيديولوجيا، فكل نهضة هي نهضة عقلية تبدأ بتصحيح المفاهيم وإعادة بنائها لكي تصبح قابلة للتحقق من ناحية إجرائية.(الحبابي 1990)

إنَّ عملية بناء المفاهيم هي أولى الخطوات التي عبرها يمكن لمجتمعاتنا صناعة مصيرها بنفسها، وكان الحبابي مدركا بأنَّ مجتمعاتنا لا يمكنها انجاز حداثتها بمفاهيم غامضة غير دقيقة مبنية على رؤية غير سليمة، لهذا إذا عدنا إلى مشروع الشخصانية الإسلامية لوجدناه جد منهم بنحت مصطلحاته وحريصا على ضبطها ودقتها ووضوحها، معتمدا في ذلك على منهج واضح الخطوات يبدأ فيه أولا: بنقد المفاهيم السائدة ثم يقوم بإعادة بنائها من جديد بناءا سليما، وقد كان مدركا أنَّ اللغة العربية إذا أرادت أن تصبح لغة ابداع فهذا هو سبيلها، أي الضبط الاصطلاحي.(الحبابي، 1983م)

كما نلمس محاولات الابداع المفهومي في كتابه المتميز "من الحريات إلى التحرر"، أين عمل على إعادة بناء بعض المفاهيم مثل مفهوم الحرية والديمقراطية، ولكن هذه المرة في الفضاء التداولي العربي، لكنه لاحظ أنَّ هناك قطيعة بين الجانب التنظيري أو النظري والجانب الممارساتي يرقى لدرجة التناقض، كما أكد على غموض هذه المفاهيم في ثقافتنا لأنها لم تحظ بتطبيق تلك المفاهيم،(الحبابي، 1971)وتعرض الحبابي للعديد من المفاهيم الرائجة في ثقافتنا العربية وهي مفاهيم لم يتم تحديد مدلولاتهاً ولكنها مفاهيم يتم تكرارها باستمرار، وهنا يلتقي بمحمد أركون Mohamed Arkoun(1928م-2010م) الذي نبهنا هو الآخر إلى ضرورة استيعاب المفاهيم قبل حق استعمالها.

وموقف محمد أركون من سؤال ابداع المفهوم كان موقفا صادما، لأنه أنكر على العقل العربي القدرة على الإبداع بكونه لم يسهم في اثراء الجهاز المفاهيمي للفلسفة، وبالتالي موقع العقل العربي في التراث الإسلامي من منظوره احتل موقعا سلبيا لم يرق إلى المفهوم الذي عرفته الفلسفة اليونانية مع أرسطو. مما يجعل الفكر العربي يعاني من إشكالية التحكم في المفاهيم يقول:"ينبغي علينا أن نقوم بعمل طويل وصبور من أجل توضيح المفاهيم قبل أن يحق لنا أن نمتلكها ونستخدمها من جديد"،(محمد أركون، 1997، ص8)، وفي النص إشارة إلى نوع الفكر الذي سيطر على ثقافتنا اليوم، فهو فكر قد صار خارج مجال المعرفة المعاصرة فاقدا للفعالية اللازمة، لأنه:"لا يفكر في المفاهيم المعطاة التي تهيمن على كل الفضاءآت المعرفية والاجتماعية والسياسية"(Mohamed Arkoun.2006,p23)، والفكر السائد غير قادر على استيعاب المفاهيم الحداثية استيعابا معرفيا، كما أنه عاجزا عن إبداع مفاهيم، وهذا يجعل من دوره لا يتجاوز عملية نقل المفاهيم من الفضاء التداولي الغربي إلى فضاء مغاير (عربي)، ومحاولة تبيئة المفاهيم وتوظيفها توظيفا مغلوطا، كان له أثره السلبي، إذ أسهم في اغتراب الواقع وزاد في تأزمه.

وبالإضافة إلى غياب الابداع المفاهيمي توجد مشكلات أخرى ساهمت في القطيعة بين المشروع الفكري والواقع نذكر منها:

أولا: مشكلة التجزئة، أي غياب النظرة الشمولية لمكونات المشكلة التي تعاني منها مجتمعاتنا. هذا الغياب ساهم في تأخر مجتمعاتنا عن حركة التاريخ التي تشكلت بعيدا عن رؤيته، كما نلاحظ غياب الحوار بين مشاريع النهضة العربية، وكل هذه العوامل مجتمعة أسهمت في تعطيل قدرة الأطروحات على التأثير في الواقع وظلت المشاريع بعيدة كل البعد عن إمكانية تأسيس وعي مدني يمكن أن يقطع مع منظومة القيم اللاهوتية القائمة على مركزية الوحي مهملة الفعل الإنساني وإرادته في التغيير، مما يعني أن المشروع النهضوي ظل في مستوى القضايا التراثية والهوياتية، ولم يتحول إلى فكر سياسي واجتماعي وتاريخي.(محمد وقيدي، احميدة النفير، 2002)

ثانيا: غياب النقد الحقيقي الذي يتجه مباشرة إلى تفكيك المسلمات والأسس والمبادئ، لأنَّ العقل البشري يحتاج دائما إلى إعادة النظر في مسلماته وتصوراته وطريقة نظرته للوجود، والنقد بمعناه الفلسفي غائب تماما عن العقل العربي لأنه في الكثير من الأحيان نجده منهما بمشكلات غير موجودة، أو بمشكلات لا تنتمي إليه مما يجعله لا يفكر أصلا، وهذا العامل أسهم في استمرار مشكلات الهوية إلى يومنا الراهن، وهي مشكلات تأبى أن تتحول إلى ماضي وهذا يتناقض والحداثة التي تعني القطيعة مع الماضي في صورته الاستبدادية. (برهان غليون، 1989).

ويؤكد كل من الحبابي ومحمد أركون على الانفصال بين الجانب النظري والجانب الاجرائي، ويدعوان إلى ضرورة القيام بمراجعة شاملة لكل منظومتنا المفاهيميةّ والعمل على تخليصها من الضبابية التي تسبح فيها، وهذه الضبابية

المفهومية نجدها حتى عند كبار المفكرين الذين يدعون قدرتهم على ابداع المفاهيم والتحكم فيها بدقةّ، لكن ينبغي التنبيه إلى أنَّ مهمة ضبط المصطلحات والمفاهيم صارت عملية مرهقة في زمن التغيرات المتسارعة، إذ يوجد تفاوت واضح بين الحركات العلمية والمفاهيم المعبرة عن ذلك الحراك، أو تلك المكتشفاتّ، لأننا نشهد اليوم تدفق هائل للمصطلحات والمفاهيم دون تحديد وضبط، حتى صرنا أمام مصطلحات سائلة بلغة البولندي زيجمونت باومان (Zygmunt Bauman)(1925 -2017). الذي يؤكد أننا صرنا أمام زخم هائل من المصطلحات مما يفرض على الباحثين ضرورة اعتماد منهج صارم للامساك بها وتحديد دلالتها بدقة في عملية التوظيف، يقول:"نحتاج المفاهيم لنستوعب أهداف المعرفة، بينما نحتاج الأساليب المنهجية لنجعلها قابلة للاستيعاب، ونتعامل مع المفاهيم والأساليب المنهجية ونحن نشق طريقنا باجتهاد ومعاناة من خلال سلسلة لا نهاية لها من المحاولة والخطأ، لكي نحكم قبضتنا بشق الأنفس على الوقائع الغامضة والمتقلبة".(نيكولاس جين، 2014، ص54.)

وفعلا قد سعى الحبابي إلى انجاز المهمة عبر نقد المفاهيم وتحديد علاقتها بالواقع وكيفية التأثير عليه من جهة والتأثير على الذهن الجمعي من جهة ثانية، لهذا ينبغي الانتباه إلى الفهم المغلوط للمفاهيم لأنها تولد وعيا زائفا، أو فكرا منحرفا في تعامله مع الواقع، فالمفكر مطالب بممارسة النقد على نصوصه وجهازه المفاهيمي كما هو مطالب بتوضيح مفاهيمه ومصطلحاته التي يشتغل عليها، وكل مفكر مطالب في عملية انتاجه لخطاب معين استحضار القارئ أو المتلقي كطرف في فعل الكتابة الإبداعية، فهو ملزم بالإفصاح عن مقاصده للقراء، تجنبا لسوء الفهم وهذا ما أكده بول ريكور (1913-2005م) في مشروعه الفلسفي.(Paul Ricœur. 1986)

وتظل مسؤولية المفكر كبيرة، فهو المسؤول عن تشكيل وعي الناس بواقعهم وبمستقبلهم وبانتمائهم الإنساني الكوني، وهذا هو معنى الفكر التواصلي يقول الحبابي:" إنَّ اللسان العربي هو وجه الفكر العربي في التواصلّ، وإنً التواصل مجرد تعبير فكر يتجسد نظريا أو فعليا، كما أنّه معيار لكل فعل مسؤول، به يميز الخطأ من الصواب، والقبيح من الحسن، فإذا لم يكن لنا لسان دقيق مبين، افتقدنا الفكر الصحيح المستقيم".(الحبابي، 1971، ص6)، كل المجتمعات العربية المعاصرة مطالبة بضرورة تطوير لغتها وتحديث مصطلحاتها لكي تصبح قادرة على التعبير عن منجزات الفكر ومنتجات الحضارة بما في ذلك منتجات الحضارة الغربية، لكن التطوير دائما مشروط بوضوح الجهاز المفهومي ودقته.

تعتبر ظاهرة الغموض وعدم دقة المفاهيم في نظر الحبابي مظهر من مظاهر التخلف الفكري، ولكن الحبابي وقع هو ذاته في ظاهرة الغموض وهو ما عبر عنه قائلا:" الملاحظات التيً سنوجهها لكاتب أو لآخر ونحن نناقشه، ملاحظات كثيرا ما تنطبق أيضا على هذه الصفحات؛ لأنّنا نحن كذلكً لا نصل إلى الوضوح المنشود، فهي كذلك لا تصب على أحد عتابا، بل تكتفي بتسجيل ظاهرة عدم الدقةّ في مختلف الخطابات العربية، فكأن الغموض طبيعة أصيلة في تاريخ

الولع بالفصاحة اللغوية، منذ العصر الجاهلي حتى عصور الانحطاط التي نمته وأثرته، وعندما واجهنا العصر الحديث بضغوطه الاستعماريةً وتقاعسنا الحضاري ازداد الوضع تأزما، لذلك نعتبر التأمل في هذه الظاهرة سبيلا إلى نقلها من مستوى فوضى عشق اللغة لذاتها، إلى صعيد الوعي بوظائفها الطبيعية الحياتية، فبدون ذلك لن يتأتى عبر هذه الرحلة الشائكة، الإسهام في إجلاء الغموض".(الحبابي، 1990، ص16)

كان همُّ الحبابي هو ضرورة تنبيه المهتمين بالشأن الفكري عندنا إلى ضرورة انتاج خطابات واضحة المقاصد حتى يتمكنوا من تقليص الهوة بينهم وبين واقعهم، لأنَّ الخطابات الغامضة والأفكار الملتبسة كانت سببا في غموض رؤيتنا لتراثنا ولحاضرنا ولمستقبلنا ولذاتنا وللآخر، لهذا اهتم بمسألة التعريب كآلية من آليات التواصل الحضاري والتعايش في أفق كوني، وهذا لن يتحقق إلا إذا حررنا مصطلحاتنا من جمودها وتكلسها عبر خطوات اجرائية حددها الحبابي في ثلاثة شروط وهي:

أولا: ضرورة التحرر من سلطة الغرب على أذهاننا.

ثانيا: ينبغي التحرر من ظاهرة الانبهار بالآخر والدوني للأنا.

ثالثا: لابد من اعتماد روح المراجعة النقدية لمواقفنا واطروحاتنا ورؤيتنا باستمرار. ونقد العقل المنتج للمفاهيم.(الحبابي، 1990)

لقد تنبه الحبابي إلى الخطابات التي تنتج بعيدة عن الواقع العربي في حين يدعي اصحابها أنهم منهمون بمشكلات العالم العربي، هؤلاء في نظر الحبابي زادوا في اغتراب الواقعّ يقول:"لا يبعد أنً جل الأسئلة التي وضعناها هنا سابقا (حول الفكروبوجيا – فكرولوجيآ قومية) لم تطرح بعد على المثقفين العرب، وربما أنّ بعضها طرح بأفكار مسبقة، لأنَّ الأوضاع لم تتبلورً لديهم، فإبهام النظريات يعكس مضامين المفاهيم التي بنيت عليها، والعكس أيضا صحيح، فأدوات التعبيرً تؤثر في النسق بكامله، وربما لم تدرس المعطيات بالقدر الكافي، ميدانيا ونظريا، فذابت رؤانا عن المصيرّ، وتضبب التعبير عنها، إن لم يكن العكس، أي أنَّ ضبابية المفاهيم هي سبب تلاشي تصوراتنا للمصير".(الحبابي، 1990، ص38)

ويتساءل الحبابي على من تقع المسؤولية؟ ولماذا ننتج خطابات غامضة؟ لماذا صرنا عاجزين عن الإبداع؟ من هو المسؤول عن القطيعة التي حدثت بين المفكر وواقعهّ؟ ويجيب محملا المفكر ذاته مسؤولية هذه القطيعة لأنه يتعمد الغموض ولا يتحرى الوضوح يقول:" إنَّ أسلوب جل الكتاب العرب المعاصرين يعطي فواكه لها رائحة جذابة، إلا أنّها عديمة الطعم، ووحداتها الحرارية ضئيلة، وفائدتها الغذائية هزيلةً، كتابات منمقة وجميلة تقدم طيفا بلا لون لافتقادها الدقة، والوضوحّ".(الحبابي، 1990، ص10)

وتعود أزمة الغموض إلى تيارين متناقضين، تيار يتنكر للواقع والتراث، وتيار ثاني يدافع عن الواقع والتراث. وكلاهما لم يتمكن من ابداع منهج عبره يقدم رؤيته للآخر ويقنع بها، لأنَّ الذي يدافع يلجأ إلى لغة العواطف وفي بعض الاحايين يستعمل العنف عبر التشهير بالخصوم وتشنيعهم وتشويههم، في حين يلجأ التيار الثاني إلى اساليب السخرية والتعال والتجريد، وهكذا لاحظ الحبابي أنَّ الأول حجته ضعيفة منهجيا والثاني بالغ في التجريد فصارت مفاهيمه فارغة خاوية من المعنى، فكانت النتيجة سوء الفهم وتعدد التأويلات وصراعها، ودخلت الأمة في فوضى التأويل وفوضى المعنى وتعدده. لكن الحبابي لم يكتف بالجانب النظري فحسب بل حاول من ناحية اجرائية إعادة ضبط بعض المصطلحات مثل مفهوم التعريب، وقد وضع شروط في عملية إعادة البناء والتصحيح والضبط منطلقا من أسئلة منها:

– ما المقصود من المفهوم؟

– ما محصلة إنجازه؟

يحاول في السؤال الأول التأسيس النظري من خلال تأسيس لغوي واضح، وتأسيس اصطلاحي مبني على واقع تداولي في بيئة المفهوم، في حين يعمد في السؤال الثاني إلى قياس مدى النتائج التي نتجت عن استخدامات المفهوم وتوظيفاته، وبهذه الكيفية جمع بين الجانب النظري والإجرائي، ويتأكد لنا هذا بوضوح في قوله:"إنَّ (تعريب) شعار واختيار سياسي –سياسة التعليم – وثقافي ووطني، إنّه مجموع نوايا وأفعال، فلا مندوحة لمن يود أن يتفحص هذا المفهوم منً التحري حتى لا يفصله عن نتائجه، فكون التعريب مناهج وعمليات، وأمانة والتزاما، يفرض قبل الحكم لهً أو عليه، أن ينظر إليه من حيث إجرائياته، لقد تجاوز لفظيته، وبات سلوكا وأخلاقا، فهو إذن خاضع لمعايير مجتمعية، أي قابل للمحاسبة وأحكام القيمة".(الحبابي، 1990،ص10)

كما اهتم الحبابي بالجانب اللغوي في عملية إعادة بناء المفهوم أو تجديده، وبنفس الكيفية تعامل مع باقي المصطلحات مثل: الديمقراطية، الدولة، الشعب، لكنه اكتشف مدى قصور اللغةّ لهذا تجاوز التأسيس المعجمي اللساني، وذهب إلى تناول المفهوم في أوساط عدة ومباحث مختلفة، فكان يقوم بعقد مقارنات. مؤكدا أنَّ التخلف ليس تخلف في اللغة وإنما في الفكر، ورغم ذلك دعى إلى ضرورة تحديث المعاجم ونشرها وتعميمها يقول:"يجب على المجامع أن تنظم شبكات لتوزيع منشوراتها داخل كل المعاهد التعليمية، في مجموع العالم العربي، بالوسائل التي تخول الإسراع في الخطوات، فيماشي سيرها صيرورة التكنولوجيا، والعلوم الطبيعية والاقتصاد والعلوم الإنسانية، فالمعاهد العليا والجامعات كالمجامع مطالبة هي كذلك بأن تسهم في خلق القدرة على الابتكار عند الطلاب، وبأن تحارب القوميات الطائفية التي تجعل كل قطر من العالم العربي يفضل لهجاته ودارجاته على الألفاظ والتعابير الجارية في باقي أو جل الأقطار الأخرى".(الحبابي، مفاهيم مبهمة، 1990،ص09)

حذرنا الحبابي من إشكالية اسقاط المفهوم على بيئة غير البيئة التي نشأ فيها، كما نبهنا إلى الحذر من التعصب للمفاهيم وهذا يدخل في دائرة ما يسميه الفكرولوجيا، والفكرولوجيا مفهوم ارتبط غالبا بعرق أو قومية ّ، فمثلا الماركسي الفرنسي أو الألماني على الرغم من اختلافهم لغةً وجنسا، لكنهم ينتمون إلى اتجاه فكري يتخذون مواقف متشابهة من تلك القضايا، ويتفقون منهجيا في تحليلهمّ للقضايا، والأمر نفسه ينطبق على الوجوديين، حيث أَّن كيركغادر Kierkegaard(1813م-1855م) الدانماركي المسيحي، وهيدجرMartin Heidegger(1889م-1976م) الألماني البروتستانتي، وسارتر Jean-Paul Sartre(1905م-1980م) الفرنسي الإلحادي، وإيمانويل ليفيناس Emmanuel Levinas(1906م-1995م) الفرنسي اليهودي كلهم - عند الحبابي - يلتقون في نقطة الانطلاق الأولى وكيفية وعي الوجود، وإن كانوا من ثقافات ولغات وأجناس وأديان مختلفة، مما يعني أنَّ عملية ابداع المفاهيم لا ترتبط بالجغرافيا، بقدر ما ترتبط بدرجة وعي المفكر بهموم مجتمعه واندماجه عاطفيا وعقليا في مشكلاته.(الحبابي، 1990)

والحقيقة التي ينبغي مواجهتها هي أنَّ النخب المثقفة التي تقع على عاتقها مسؤولية إعادة بناء الوعي على أسس فلسفية وعلمية قد أخفقت لحد الساعة، ولم تتمكن من علمنة الثقافة العربية، يقول لحبابي:"إنَّ المثقفين قد أخفقوا في تمكين الجماهير العربية من حقها في الأبجدية والتوعية والشعور بالكرامة، فمن الضروري أن يعي المثقفون أنهم لم يؤدو رسالتهم كما يقتضيه الواجب".(الحبابي، مفاهيم مبهمة، 1990، ص67)، والمثقف لم يمكن الشعوب من وعي حقوقها وعيا مكافحا، كما لم يمكنها من التحول من مستوى الرعايا إلى مستوى المواطنين، وما مصطلح الديمقراطية المتداول في فظاءاتنا العربية في رأينا إلا مفهوم مزيف في مخيال الشعوب العربية، لأنَّ الديمقراطية وعي وإدراك للكرامة الحقة التي تقتضي المشاركة في بناء المصير من منطلق المسؤولية المشتركة، لهذا تقع كل المسؤولية على عاتق المثقف فهو مطالب بخلق الفرص ولا ينتظر الفرصة السانحة، ووعي المثقف في رأيي ينبغي أن لا يتأخر عن الواقع وأزماته اليومية وإلا صار وعيا مأزوما هو الآخر.

خاتمة:

نخلص في نهاية محاولة تفكيك إشكالية الابداع المفهومي في فكرنا العربي المعاصر إلى أنَّ عملية تفكيك المفاهيم وإعادة بنائها ينبغي أن تمر بمراحل إجرائية أهما:

- ضرورة تفكيك المفهوم بتحديد بنيته الأساسية والثانوية.
- ينبغي تحديد شبكة العلاقات بين مكونات المفهوم الأساسية والفرعية.
- تفعيل المفهوم في الأنساق المعرفية. عبر تفعيل المفهوم في الواقع العملي المعيش.
- الابداع الحقيقي هو الذي ينبع من المشكلات الماثلة أمام الذات.

-إعادة النظر في برامجنا التربوية التي ترتكز على المضامين المعرفية والتحول بها إلى فلسفة إنتاج المعرفة.

- تكوين المتعلم على ثقافة الحوار والنقد والتأسيس لثقافة الاختلاف.

- التأسيس لثقافة المثقف العضوي القادر على التواصل مع مشكلات مجتمعه عبر خطابات دقيقة ملتزمة.

-لم يستطع الحبابي التأسيس لجهاز مفاهمي بديل يعبر به عن الواقع المأزوم، وكما أنه ظل بعيدا عن المشكلات الحقيقية التي يعاني منها المفكر العربي اليوم، لكن القيمة المضافة لهده الأطروحة هو أنه نبهنا إلى ضرورة الاشتغال على المفهوم لما له من دور كبير على بنية الثقافة وبنية الوعي في تمثل واقعه.

- إعادة تأسيس مكونات الواقع تأسيسا مفهوميا لا يقع على عاتق المفكر لوحده فحسب وإنما هي مسؤولية كل الفعاليات الاجتماعية والسياسية، لهذا مجتمعاتنا أمام تحديات كبرى ومصيرية، تحديات أنطولوجية لا يمكن انجازها إلا عبر اعادة تفعيل الخطاب الفلسفي العقلاني في مشروعنا الاجتماعي والسياسي والتربوي، دون اغفال ما يحدث في العالم من تغيرات جذرية على كل المستويات.

- صارت مسؤولية المفكر أكبر، فهو مطالب بالتفكير انطلاقا من واقعه المأزوم ومحاولة الخروج به إلى واقع أفضل، كما هو مطالب بالتفكير في أفق كوني بحكم أن ما يحدث في العالم يؤثر مباشرة على ثقافتنا وواقعنا، لهذا الابداع المفهومي يصبح في اعتقادي متاحا إذا حدث وأن تصالح المفكر مع السياسي وانخرطا في مشروع مجتمع متكامل.

قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية

1-الحبابي، – الحبابي، 1990، مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر، ط1، القاهرة، دار المعارف.

2- ميشال فوكو، 1986، حفريات المعرفة، تعريب سالم يفوت، الدار البيضاء.

3-مجموعة من المؤلفين، 2015، محمد عزيز الحبابي الشخصانية والغدية،ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت.

4-الحبابي، عالم الغد، 1991، العالم الثالث يتهم: مدخل إلى الغدية، ترجمة فاطمة الجامعي الحبابي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

5-ربيع ميمون،1994، الأستاذ محمد عزيز الحبابي الفيلسوف الرائد، م18، ع1، الجزائر، حوليات جامعة.

6-الحبابي، الإنسان والأعمال،1991، ج2، ترجمة فاطمة الجامعي الحبابي، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة.

7-نصر عارف،1994، الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، تصدير الدكتور طه جابر العَلَواني، فيرجينيا(الولايات المتحدة الأمريكية)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

8- إ. بيفردج،1963، البحث العلمي، ت زكريا فهمي، مراجعة أحمد مصطفى أحمد، القاهرة، دار النهضة العربية.

9-أحمد محمد المعتوق،1996، الحصيلة اللغوية، الكويت، مجلس الثقافة والفنون والآدب.

10-حسن حنفي،1981، التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، بيروت، دار التنوير.

11-محمد المصباحي، 2010، فلسفة عربية معاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، رقم165، ط1. الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات.

12-ابراهيم مذكور،1983، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة للمطابع الأميرية.

13- م. روزنتال ، ب. يودين ،1997،الموسوعة الفلسفية. ترجمة وتحقيق يوسف كرم، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر.

14- جيل دولوز؛ فليكس غتاري، 1997، ما هي الفلسفة ؛ ترجمة مطاع صفدي؛ط2، الدار البيضاء، مركز الإنماء العربي (بيروت)؛المركز الثقافي العربي.

15- الحبابي، الشخصانية الإسلامية،1983، ط2، القاهرة، دار المعارف.

16-الحبابي، من الحريات إلى التحرر،1971، القاهرة، دار المعارف.

17-محمد أركون،1997، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، ترجمة هاشم صالح، بيروت، دار الساقي.

18-محمد وقيدي، احميدة النفير،2002، لماذا أخفقت النهضة العربية،ط1، دمشق، دار الفكر.

19-برهان غليون،1989، اغتيال العقل، محنة الثقافة العربية بين التبعية والسلفية، ط1، تونس، دار المعرفة للنشر.

20-نيكولاس جين،2014، مستقبل النظرية الاجتماعية، ت يسرى عبد الحميد رسلان،ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة.

قائمة المراجع الأجنبية

21- Paul Ricœur, 1986,Du texte à l'action – Essais d'herméneutique ,Paris. ED, Du Seuil

22- Gilles Deleuze,1991, Qu'est-ce que la philosophie ?, en collaboration avec Félix Guattari, Paris. Les Éditions de Minuit, coll. « Critique ».

23- Bergson,1970, La pensée et le mouvant, Œuvres, Paris. Edition du Centenaire, La Pléiade (par A.Robinet et H. Gouhier), P. U. F.

24-Deleuze,1968, Le bergsonisme, Paris , PU.F.

25-André Martinet. 1960, Eléments de linguistique générale. Paris, Armand Colin.

26- Mohamed Arkoun,2006, Histoire de l'islam et des musulmans en France du Moyen Age, à nos jours sous la direction de Mohamed Arkoun, préface de jacques le Goff, Paris ,Editions Albin Michel .